

تاريخ ثوكيديديس

الاستاذ سيد محمد سيد

الفرس ومصر إلا بقدر ما تؤثر في مجرى الأمور في ولايات الإمبريق

وعلى الرغم من أنه في هذه الفترة من التاريخ القديم عاش فطاحل الأدب والفلسفة والفن أمثال همدوت وايسوخلوس وفيدياس واور بيرس وسقراط فإن ثوكيديديس لم يذكر في كتاباته اسم أحد من هؤلاء كما لم يشير إلى أعمالهم بشئ بل إن كل ما وجه إليه عنايته هي تاريخ الحروب البلوبونيزية مما جعل البعض يطلق عليه أنه مؤرخ هذه الحروب

وإن الباحث المدقق في تاريخ هذا الرجل يبدو له لأول وهلة إن كتاباته ليست سوى صورة باهتة جرت بها يد شخص ليست لديه ملكة قياسية ، هذا في الوقت الذي اعتبره فيه « ماكولي » أعظم المؤرخين !

ويرى السير تشرشل وفنجستون في مقدمته عن تاريخ ثوكيديديس الذي نقله عن اليونانية أنه ليس في الحياة الأدبية لأمة ثلاثة تشابهت أو تساوت عبقريتهم مثل أفلاطون وأرسطو وثوكيديديس في أثينا ... ويقول أيضاً ... لقد كانت لدى ثوكيديديس هذه الروح السلية التي نجدها عند المؤرخين في أيامنا

وقد شرح لنا ثوكيديديس على صفحات كتبه النظريات عن كيفية التحقق من الروايات التاريخية ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول - ولا حرج - إنه واضح الأساس لهذا العلم التامثي . ولنستعرض آراءه إذ يقول « لكي تبعد عن الحقيقة يجب أن لا تبدأ بأول ما يصل إلى متناول يدك ، وعلى المؤرخ أن لا يتنكب الوصول إلى الحقيقة عن طريق أخيلة الشعراء وأساطير الأولين الذين يحاولون اجتذاب القلوب إلى أحاديثهم المشوقة عن طريق التهوريل والمبالغة دون النجاة بذكر الحقيقة

ثم يرجع ثوكيديديس إلى الإشارة عن طريق تدوينه الوقائع الحربية فيقول « لا أذكر أني دونت معلومات استقيتها مصادفة ، فإن لم أذكر سوى ما رأيته بمعنى رأسي أوقت بتحقيقه شخصياً وانضح لي في النهاية أنه وقع فعلاً . ومع ذلك فقد أخطأ التوفيق في الحكم على بعض الحوادث ، فالبعض يرى أنه كان متجنباً على الزعم الديما جوجي « كليون »

ثوكيديديس .. وأعني به ذلك المؤرخ المعروف الذي أرخ لنا الحروب البلوبونيزية التي نشبت بين أسبرطة وأحلامها من جهة وبين الإمبراطورية الأنانية من جهة أخرى وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس قبل ميلاد المسيح

والتاريخ في حد ذاته فن يحتاج إلى عدة عناصر يجب أن تتوفر في المؤرخ ، منها مثلاً معرفة الحقائق والاستعداد لتسجيلها بأمانة وإخلاص ، وكذلك الاستمانة بالخيال - إلى حد ما - لتصوير الشخصيات وإبراز النتائج

ونحن نعلم تماماً أن المعرفة ليست من السهولة بمكان ، كما أنه يصعب التوفيق بين الدراسة العميقة والخيال الخصب ، ومع ذلك فقد نجحت ثوكيديديس من هذه العناصر ما ترفعه إلى مصاف أعظم المؤرخين ، وربما كان هذا رأي « ماكولي » المؤرخ المعروف الذي كتب في مذكراته : لقد انتهيت اليوم من قراءة ثوكيديديس وتاريخه بكل شغف وإعجاب ، واستطيع أن أقرر أنه أعظم مؤرخ ظهر إلى اليوم

ولا أرى بأساً من أن أشير إلى سيرة هذا المؤرخ إشارة وجيزة تمهيداً للكلام عن تاريخه

ولد ما بين سنتي ٤٧ ، ٤٦ قبل الميلاد في أثينا ، ومن الحقائق التي عرفت عنه أنه قاد أسطولاً بحرياً أثينياً ضد الأسبرطيين خلال حروب البلوبونيز ، وقد قص علينا في (كتابه الرابع) فشله في هذه المهمة بإيجاز وخشى أن يعود إلى وطنه بمرر أذيال الخيبة والحسرة ، فولى وجهه شطر بعض الولايات المعادية لأثينا في البلوبونيز . ثم بدأ يكتب تاريخه

وقد استغرقت الحوادث التي دونها أربع الأخير من القرن الخامس ق . م وعني بذكر حرب البلوبونيز بصفة خاصة فلم يشير في كتاباته إلى الإمبراطوريات القائمة وقتئذ مثل إمبراطورية

يرجع إلى كتابه الذى نقله من اليونانية أخيراً سير رتشر د
لفنجهستون عميد إحدى كليات أوكسفورد

وقد أشار هذا المؤرخ الكبير إلى حقيقةتين عن الديمقراطية
جديرين بالتسجيل ، الأولى هي أن الديمقراطية الناجعة في حاجة
ماسة إلى زعماء مهرة بارعين إذ أن أثينا لم تحطمها وتودى بها
سوى الزامة الفاسدة . والحقيقة الثانية هي معنى الديمقراطية
فهى - كما يرى - التى تترك لكل فرد الحرية في أن يعنى بشؤون
نفسه بطريقة الخاصة به وعلى الأفراد واجب احترام قوانين الولاية
وأن يقدموا لها الخدمات بمطلق حريتهم

وكان الرجل واقعياً في تفكيره لا يجرى وراء النظريات
المثالية التى نادى بها مفكرى اليونان في القرنين الخامس والرابع
قبل ميلاد المسيح ومنهم أفلاطون الذى قال (إن الدولة قامت
لتنشر العدل) بل قال صاحبنا (إن الدولة هى القوة وأنه لا دخل
للأمور الأخلاقية في العلاقات السياسية بين الدول وأن على
الضعيف دائماً أن يستسلموا) وليست هذه البادى صادرة عن
توكيديديس نفسه بل هي صدرت عن الحقائق ، فإن أفلاطون
رأى ما ينبغي أن تكون عليه الدولة في حين صور لنا دورخنا
حالة الدولة في الواقع

وهكذا فإننا لا نرى إشارة إلى العدالة أو الرحمة في تاريخه ،
فقد عبر عن آراء الزعماء والقادة . وهذا صاحبه بركليس يقول
(عليك أن تذكر أن عظمة بلادك ترجع إلى أنها كرسيت حياتها
للحرب ، ولو سرت عليها سنة التطور وأخذت في الانهيار
فيكفى أنها حكمت أكبر عدد من الولايات لم تحكمه دولة أخرى)

...

وقد يبدو لنا تاريخ توكيديديس لأول وهلة سرداً للوقائع
لمبور دراماتيكية عملة دون أن نشارك الفريقين المتحاربين مواطنه ؛
بيد أن « فرديت » يقول : كما تبدو فكرة المواطن الصالح في
« كوميدات اريستوفان » تظهر الروح الوطنية في تاريخ
توكيديديس فهو لم يفرم بشيء قدر غرامه بأثينا ، كان صاحبنا
ينظر نظرة خاصة إلى الوطنية فلا يكتفى بأن يكرس الفرد جهوده
لوطنه بل عليه أن يتمشقه عشقاً !

في الوقت الذى أغرق فيه في مدح الزعماء « ركابس » ، لا بأس
فإن هو المؤرخ الذى يسرد الحوادث التاريخية دون أن يتأثر
بالمحاطة والتعجب ؟

وقصارى القول ، أن توكيديديس كان يفهم تماماً الطريقة
الصحيحة لتدوين الحوادث ، وكانت لديه عدة ميزات تعينه على
ذلك الحقيقة كانت تنقصه العناصر المتوافرة لدى مؤرخى العصور
الحديثة ، فهو لم يذهب إلى المدرسة أو الجامعة ولم يتعلم طرق
البحث العلمى الصحيح ، إلا أنه تعلم طريقة الحياة وسط المفكرين
الذين تبدو آراؤهم في الانكسارات السيكولوجية لأحداثه ، فقد
كان يقص الحوادث التى وقعت في زمانه وبصور المواطن
والأحاسيس التى أحس بها شخصياً واستطاع بذلك أن يمتاز بأن
تصوره للحوادث جاء عن اتصاله الشخصية بها لا عن طريق
المستندات والدرنات . وهو لم يقص حياته متفرجاً بل اندمج
بنفسه في كثير من الحوادث وسام فيها ، فكان سياسياً خدم
في الجيش وعمل في الأسطول وتلقى جانباً من الثقافة من اتصالاته
بالمفكرين والشعراء في هذه السمات التى كان يقضيها معهم في
محالهم حيث كانوا على اتصال دائم بالطبيعة الإنسانية التى اتخذوا
منها مادة لكتاباتهم ونظمهم

وكان لاشتراك بلاده (أثينا) في الحرب ميزة املها الفريدة
من نوعها لتدوين حوادث هذه الحرب وخاصة بمد أن قضى
شعراً من حياته في صفوف المدو وهو يقول في ذلك :

« لقد كان من حسن حظي أن أمضى عشرين عاماً في النقي
فوجدت بذلك الفراغ الكافي لأن أرقب الحوادث عن كثب »

هذه العناصر ، عنصر المساهمة في الحوادث والنظر إليها
خلال منظار بلاده تارة ومن منظار أعدائه تارة أخرى كانت
كافية لأن تجعل منه مؤرخاً منقطع النظر

وقد أطلق البعض عليه لقب (مؤرخ سياسي) وقد دفعهم
إلى ذلك أنه عنى عناية فائقة بمسلك الأمم والرجال في الأمور
السياسية ، وإن من يقرأ تاريخه عن الحرب البلوبونيزية يدخل
في روعه أنها حروب نشبت بين إمبراطوريات عظام ، وأوضح لنا
المؤلف سبب قيام هذه الحرب ويستطيع القارى الكريم أن
٣٥٥٥٠